مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، المجلد (٢)، العدد (١)، ص ص ٩١-١٠٥، بالعربية (محرم ١٤٣٠هـ/يناير ٢٠٠٩م)

البحتري ونقل خلافة المتوكل إلى دمشق مصانعة أم موافقة ؟

حسين بيوض
أستاذ الأدب بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حلب
Hb-deara@hotmail.com
(قدم للنشر ١٤٢٨/٨/١١هـ؛ وقبل للنشر ١٤٢٩/١/٢٦هـ)

ملخص البحث. يعرض هذا البحث لفكرة مصانعة الحاشية للسلطان، ولا سيما أرباب القلم واللسان، وفي مقدمتهم الشعراء الذين ينتهزون المناسبات، ليتظاهروا في أثنائها بصدق الولاء، بموافقتهم العمياء على كل ما يراه الحاكم، أو يصدر عنه من صنيع في السراء والضراء، بغض النظر عن الخطأ والصواب. وكمثال على ذلك موقف نادر قلما يتكرر في السياق الذي نقل إلينا من خلاله، وأعني به موافقة البحتري وتأييده لعزم سيده وربيب نعمته المتوكل على الله، حينما عزم على نقل مقر الخلافة من العراق إلى الشام. إذ تبين لاحقًا أن الفكرة كانت مرتجلة، والخطوة مستعجلة؛ فباءت الخطة بالإخفاق، والعمل بالفشل.

مقدمة

ينبغي أن يكون معلومًا سلفًا أنه من غير الممكن أن يصح كل ما يريده السلطان، أو يصدق كل ما يتطلع إليه الحاكم ويتمناه بصفته فردًا، كما أنه ليس من الضروري أن يتحقق ما تنصح به الحاشية، أو تقترحه الوزارة بصفتها جماعة، ولا سيما في حال غياب الخبراء عن توجيه دفة الحكم، وانعدام الأمناء في تسيير أمور السياسة. إذ لا بد هنا من التوفيق والحكمة اللذين قلما يجتمان في غير الموهوبين والنابهين من أصحاب الرأي والرشاد، ممن لا تأخذهم العزة بغير النهج الرباني والسلوك الإيماني. ومن ثم فلا يصح أن تُعذر الحاشية كائنة من كانت، وكيفما كانت، بالتذرع باستبداد الممدوح أو إعجابه برأيه، أو اضطراره لاتخاذ قرار قد يرضي فئة، ولكنه يسخط أخرى، لاختلاف الأهداف والأعراف والأسباب، وللجهل أحيانًا بخفايا الأمور، وما يدور خلف الأستار والأسوار.

عرض البحث

الحق أن ما فعله المتوكل من نقل عاصمة الخلافة العباسية من حاضرة العراق إلى حاضرة الشام يعد حدثًا جديرًا بالتناول والبحث، وفعلاً يستحق التأمل، إذا ما لوحظت فيه العوامل النفسية، والدوافع الأمنية الكامنة وراءه. ومن ثم فليس عجيبًا - والحديث عن ظَرف طارئ - أن يجد الخليفة في حاشيته شاعرًا كالبحتري يَرضى لنفسه أن يكون بوقًا له، يدعو إلى مصانعته رغبة أو رهبة، عبر أشعار غاية في الجمال، يصوغها ليوافق في ثناياها بعض سياسة سيده الممدوح، ويستحسن طرفًا من رغائبه وأفعاله في هذا الحين أو الزمان، مظهرًا فضله - بصفته ممدوحًا من ناحية، وخليفة من ناحية أخرى - على المكان بحاضرة ملكه، وموقع سلطانه، وفضلَه على من يقيم فيه أو ينتمي إليه، مبينًا مدى تعلق التابع بالمتبوع، وأنه لا شيء من دونه.

فكرة البحث تبدأ مع الحسين بن الضحاك (١٦٢-٢٥٠هـ) الذي ولد في مدينة البصرة، ونشأ بين أهلها إلى أن تركها لينزل مدينةَ بغداد، أيام الأمين أو قبله بقليل؛ فيتخذه هذا نديمًا له. ويبقى عنده حتى يضطر إلى مغادرتها مع دخول المأمون بغداد، قادمًا من خراسان. وينتهي الحال بالشاعر إلى الرجوع نحو موطنه مدينة البصرة، فينظم أشعارًا، يندد فيها بطاهر بن الحسين قائدِ المأمون في حربه ضد الأمين (ت١٩٨هـ) ويبكي بغداد، التي أضرّتْ بها مجانيقُ طاهر. وبموت المأمون سنة ٢١٨هـ وتسلُّم المعتصم سدة الحكم في حاضرة الخلافة، يستقدمه إليه، ويقربه منه، ويُقْطِعه - كما أقطع رجال حاشيته - دارًا قوراء في مدينة سامراء، التي نقل إليها الخلافة، مقدمةً لمكافأة له على مديحه إياه، الذي أشاد في بعض ثناياه بالمدينة الجديدة، وفضّلها على مدينة بغداد [١، ص ١٤٦/٧].

سـر مـن را أسـر مـن بغـداد   قَالْـه عـن بعـض ذكرهـا المعتـادِ
حبـذا مـسرح لهـا لـيس يخلـو   أبـدا مـن طريـدة وطِـراد
وريـاض كأنمـا نـشـر الزهـ   ـر عليهـا محبـر الأبـراد

مثل هذا التنفير من مدينة بغداد والدعوة إلى تناسيها يعود في حقيقته إلى وقت مبكر من نشأة هذه المدينة ؛ فالشاعر، ولا سيما المتكسب، لا يهمه إلا ما يوافق ممدوحه، فهو ينشده ما يُرضيه ويُدْخِل السرور إلى نفسه، ولا يأبه بعد ذلك إذا هو خالف الواقع، وغَيّر الحقائق. فقد نقل الأزدي (ت٣٣٤هـ) في أحداث سنة١٧٤هـ أن هارون الرشيد (ت١٩٣هـ) خرج إلى الجُودي بِقَرْدَى، وبنى هنالك قصرًا ومسجدًا ، فقال أحدهم في ذلك [٢ ، ٢٧٣]:

قَــردى وبازبــدى مــصِيف ومربــع ... وعــذب يحــاكي السلــسبيلَ بــرود

وبغداد ما بغــداد ؟ أمــا ترابهــا ... ففحم، وأمــا حرهــا فــشديــد (١)

والمعتمد عند المؤرخين أن المعتصم هو الذي بنى مدينة سامراء، فاختط المسجد الجامع، ومن حوله الأسواق. وخَطَّ لنفسه ولوزرائه وقواده وكتابه خططًا، وأفرد قطائع خاصة للأتراك، وخصص مكاناً للدواوين، ومساكن للعامة، وأحاط المدينة بسور. وكان إفراد الأتراك بقطائع عن غيرهم أمرًا جديدًا في تخطيط المدن، لم يكن مثله في تخطيط بغداد، التي كانت مسكونة يومئذ من العرب والخراسانيين، ولا في تخطيط مدينة واسط ؛ لأن الحَجّاج عندما بنى واسط في العراق، جعلها لجنوده الشاميين، الذين لم يُرِد لهم أن يختلطوا كثيرًا بأهل العراق، فمنع غير الشاميين من سكناها ليلاً، فإذا جاء الليل أخرجهم منها، وأغلقت أبوابها حتى الفجر. وكانت غاية المعتصم أن يجعل الأتراك بمعزل عن قطائع غيرهم، لا يختلطون بقوم من المولدين، ولا يجاورونهم. ويبدو أن المعتصم كان يرمي من وراء ذلك إلى هدف سياسي، وهو تكوين جيش ينزل على أمره دومًا. غير أن تكاثر هذا الجيش من عناصر غير عربية، أدى إلى نتائج معاكسة للأهداف التي كان يهدف إليها. وذلك أن الذي طرأ على نفسية هذا الجيش الغريب، أدى إلى شغبهم على الخلفاء. بل تعصَّبَ بعضُهم على بعض أبناء الخلفاء ؛ فتحولت الخلافة إلى ألعوبة بأيديهم وأيدي قوادهم، وتفاقمت سيطرة هؤلاء، حتى تجرؤوا على قتل من قتلوا من الخلفاء، كالمتوكل سنة ٢٤٧هـ ، ونجدهم يخلعون أكثر من خليفة بعده.

إذا كان المعتصم أول من أقدم على نقل الخلافة من مقرها في بغداد ، التي ضاقت دروبُها وطرقاتها بعسكره من الأتراك، ليديرَ شؤون الخلافة - هو وابنه الواثق من بعده - من مدينة سامراء، التي خطها لهذا

---

(١) قَردى وبازبدى قريتان قريبتان من جبل الجودي بالجزيرة قرب جزيرة ابن عمر، حيث رست سفينة نــوح ﷺ . وروايــة ففَحــم متأخرة عن رواية ابن جرير الطبري في تاريخه، ص ٤٤٨/٦ فَخرٌ مفرد خروء كجند جنود : فخرء ، وأما حرها فشديد . وروى الحِميري مِن بعدِهما البيتين مرتين : فجمر، وأما حرها فشديد
وذلك في كتابه الروض المعطار، ص٧٤/١ و ٢٣٣/١.

الغرض، فإن ابنه الثاني المتوكل لم يلبث فيها طويلاً، بل بدا له في وقت مبكر من خلافته أن يتبدلها بمدينة أخرى[٢] أعرقَ بالخلافة وأقدم، ونعني بها مدينة دمشق، التي كانت حاضرةَ الخلافة في عهد بني أمية. وقد لاقت خطته هذه موافقة الحاشية من حيث المبدأ، وكأنهم استلهموا هدْيَ النبي ﷺ في الحديث الذي رواه زيد بنُ ثابت ﷺ قال: " كنا يومًا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآنَ من الرِّقاع، فقال رسولُ الله ﷺ : طوبى للشام، فقلتُ: لِمَ ذلك يا رسولَ الله ؟ قال : لأن الملائكة باسطةٌ أجنحتَها عليها[٣]". والحديث الآخر الذي رواه أبو الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " إن فسطاط المسلمين يومَ الملحمة بالغُوطة، إلى جانب مدينةٍ يقال لها دمشق، من خير مدائن الشام[٤] . ومن ثم لم يكن غريبًا أن يشيد شعراء القصر بعزم المتوكل على ذلك. وكان من هؤلاء الذين استحسنوا عن علمٍ فكرته، واستنهضوا عن ثقةٍ همته، وزيَّنوا عن دهاء خطته، شاعرُه البحتري، الذي نظم عددًا من القصائد في هذا الغرض، فأعلى من شأن مدينة سامراء، ثم حَوَّلَ مدحَه لمدينة دمشق. ولم يلبث، بُعَيد أسابيع معدودة، أن رجع عن مدحه لها ؛ إذ راح ينتقص منها، مناقضًا نفسه، وطامسًا ما سبق أن دبجه فيها، ليشيد من جديد بكلٍّ من سامراء وبغداد، بهدف تحسينهما في نظر المتوكل.

ربما كان المتوكل أول من عُرف بشهرته من خلفاء بني العباس بالانهماك على شهوته، ولذلك كان أصحابه يستخِفُّون ويتَسخَّفون بحضرته، إذ كان يهاتر الجلساء، ويفاخر الرؤساء. وكما يؤكد الحُصَري فإنه مع ذلك من قلوب الناس محَبَّب، وإليهم مقرَّب، إذْ أمات ما أحياه الواثق من إظهار الاعتزال، وإقامة سوق الجدال [٣، ص ١/ ٢٨١][٥] .

لأكثر من سبب عَزَم المتوكل على نقل مقر الخلافة وعاصمة الدولة الإسلامية من مكانها في سامراء بالعراق إلى الشام، وبالتحديد إلى مدينة دمشق عاصمةِ الدولة الإسلامية في العصر الأموي. ولم يكن جوّ دمشق وبيئتُها هما فقط اللذين جعلاه يعيد النظر لاحقًا فيما أقدم عليه، ويسرعُ في تقويض كل الجهود التي بذلها، كما يذهب إلى ذلك كريمر(Kremer)[٤ ، ص ١/ ١٥٧] فيغذّ السير وجلاً، ويعود أدراجه راجعًا من حيث أتى ؛ لأن هذا التعليل الظاهري لو صَحّ، لَعُدّ ذلك قصورًا في التخطيط العسكري، وتقصيرًا في التحليل السياسي، إذ كان عليه وعلى من عنده أن يعرفوا ذلك مسبقًا. فدمشق بلد مأهول، وليس بالمجهول، حتى لا يعرفَه من شاورهم أو أشاروا

---

(٢) وهو ما تؤكده الدراسة المستفيضة عن هيمنة الأتراك في سامراء لتولنر: Töllner : Die türkischen Graden , S. 75.

(٣) أخرجه الترمذي رقم ٣٩٤٩ في المناقب،وإسناده حسن؛ وانظر:ابن الأثير:جامع الأصول٩/٣٥٠.

(٤) أخرجه أبو داود رقم ٣٢٩٨ في الملاحم،وإسناده صحيح؛وانظر:ابن الأثير:جامع الأصول٩/٣٥١. والفسطاط هاهنا أراد به البلدة الجامعة للناس،ومنه سميت مصر الفسطاط. والملحمة:الحرب والقتال.

(٥) وانظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي عند ترجمته للمتوكل.

عليه، فجوُّها وغوطتها مشهوران شهرتَها منذ القِدَم. والمرجّح أن أسبابًا سياسية أخرى - غيرَ هذا السبب البيئي - هي التي كانت وراء ذلك. فقد أدرك المتوكل في وقت متأخر، ولكن قبل فوات الأوان، خطورةَ خطته الجريئة، التي قام بتنفيذها. ولئن أصبح خائفًا على نفسه أولاً، وعلى سلطته ثانيًا، وهو في مدينة سامراء، فإن المخاوف لديه تعاظمت، والمخاطر حوله تفاقمت ، بعد أن ابتعد عن العراق. وكأنه صحّ عنده، وثَبَت لديه، أن الأمر يوشك أن يفلت من يديه، وتؤولُ الخلافة في العراق إلى غيره، وهو غائب عنه في الشام، مقصيًا نفسه بنفسه عما يطرأ ويستجد، ولن يسعفه البريد العاجل، ولا الحمام الزاجل، للكشف - في الوقت المناسب - عن أطماع المتربصين به، ولا سيما أسرته.

ومع أن انتقاله إلى دمشق تقرر سنة ٢٤٣هـ فيبدو أن اهتمامه بنقل مقر الخلافة كان أبكر من هذا التاريخ. فالطبري يذكر أنه رحل سنة ٢٣٤هـ نحو المدائن، وبعد خمس سنين تردد إليها مرات عدة [٥ ، أحداث السنوات المذكورة] وفي أثناء ذلك كان يأتي إلى بغداد، ويُعنى عناية خاصة بضواحيها. وقد استنتج هيرتسفيلد (Herzfeld) أنه كان يبحث في رحلاته تلك عن مقر إقامة له، وحاضرةٍ للخلافة، وهو رأي لا يبعد كثيرًا عن الواقع [٦ ، ص ٢٠١].

والجدير بالذكر أيضًا أنه في فترة القلق هذه، كان يكثر من بناء القصور. وحين تحركت همته للسفر إلى دمشق، أمر بتحسين الطرق إليها، وتفقُّدِ القصور الواقعة على تلك الطرق، قبيل أن يحين موعد انطلاقه في شهر ذي القعدة من تلك السنة. في شهر صفر من سنة ٢٤٤هـ ينزل مدينة دمشق، ويأمر بعد بضعة أيام بأن تنقل إليها الدواوين، وتشادَ فيها الأبنية الحكومية اللازمة [٧ ، ص ٢/٤٩١].

وعلى أية حال فإن المعلومات التي تقدمها لنا المصادر حول هذا الحدث غير العادي ضئيلة جدًا، وهي لا تذكر سببًا واضحًا وصريحًا أو مقنعًا لانتقاله، علمًا أن الطبري [٥ ، أحداث السنوات المذكورة] ينص في الموطن السابق المذكور على أن الطقس والحشرات هما اللذان دفعا بالمتوكل إلى العودة بعد شهرين. ويُفصِّل ذلك ابنُ كثير بعده في كتابه البداية والنهاية فيقول: " ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين. في صفر منها دخل الخليفة المتوكل إلى مدينة دمشق في أبهة الخلافة، وكان يومًا مشهودًا، وكان عازمًا على الإقامة بها، وأمر بنقل دواوين الملك إليها، وأمر ببناء القصور بها فبنيت بطريق داريا، فأقام بها مدة، ثم إنه استوخمها ورأى أن هواءها باردٌ نَدِيّ، وماءها ثقيل بالنسبة إلى هواء العراق ومائه، ورأى الهواء بها يتحرك من بعد الزوال في زمن الصيف، فلا يزال في اشتداد وغبار إلى قريب من ثلث الليل. ورأى كثرةَ البراغيث بها، ودخل عليه فصلُ الشتاء، فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمرًا عجيبًا، وغلت الأسعار وهو بها لكثرة الخلق الذين معه، وانقطعت الأجلاب بسبب كثرة الأمطار

والثلوج ، فضجر منها ... ثم رجع من آخر السنة إلى سامرا بعد ما أقام بدمشق شهرين وعشرة أيام ، ففرح به أهل بغداد فرحا شديدًا " [٨ ، أحداث سنة ٢٤٤هـ].

أما ابن تغري بردي فيذكر سببًا آخر ، وهو أن بعضهم أثار في المتوكل الحنين إلى العراق ، ببضعة أبيات من الشعر ، أوصلَها إليه ، فنشطه للعودة والرجوع من حيث أتى [٩ ، ص ٣١٤/٢].

كما روى السيوطي أن المتوكل قَدِم دمشق ، فأعجبته ، وبُني له القصر بداريا ، ووطد العزم على سكناها ، فقال يزيد بن محمد المهلبي [١٠ ، ص ٣٣٢] (٦) :

أظُـن الـشام تـشمت بالعـراق إذا عـزم الإمـام علـى انطـلاق

فإنْ تدعِ العـراق وساكنيـه فقد تبلى المليحـة بالطـلاق

وقد حَفظ لنا ديوانُ البحتري عددًا من القصائد الجديدة في غرضها وموضوعها ، والجميلة في شكلها ومضمونها ، قالها الشاعر في تلك المناسبة ، بغرض الدعاية الموافقة للخليفة ، وإظهار الاستحسان في كل ما فعل جملة وتفصيلاً. فمدَحه على خطته في الرحيل ، متفائلاً بتمهيد السبيل ، وداعيًا له بالتوفيق والتأييد ، والسفر السعيد.

مع ابتداء القصيدة الأولى يذم البحتري الحياة في مدن العراق الحارّة ، ويحبب إلى الخليفة العيش في الشام المعتدلة ، وفي عاصمتها دمشق بالذات ، ذاتِ الظلال والغلال ، ويزين له بيئتها ومناخها ، ويجعل قدومَه إليها من إرادة الله التي لا مناص له من تنفيذها ، فيقول مخاطبًا ومطمئنًا بيُمن سفره ، وحفظ الله الواحد الأحد له [١١ ، ص ٠٨/٢] (٧).

٩ - قـد رحلْنـا عـن العِـراق ، وعـن قَيظِهـا النكِـد

١٠- حبـذا العـيش في دمـشـق ، إذا ليلُهـا بـرد

١١- حيـثُ يـستقْبلُ الزمـانُ ، ويستحـسن البلـد

١٢- سـفَر جـددت لنـا الـلـهو أيامـه الجُـدد

١٦- سِـر بِسعدِ الـسعودِ فـي صحبـة الواحـد الـصمـد

---

(٦) ورواهما قبلَه صاحب المختصر في أخبار البشر أيضا في السنة المذكورة ٢٤٤هـ.

(٧) والقصيدة ١٦ بيتا. السعد: اليمن ، وهو نقيض النحس بمعنى الشؤم. السعودة خلاف النحوسة. وسعد السعود: كوكبان ، وهو أحمد السعود ، ولذلك أُضيف إليها. وهي عشرة سعود ، المشهور منها أربعة : الذابح وبلَع والسعود والأخبية.

وبمناسبة وصول المتوكل إلى الموصل، ينظم البحتري قصيدة ثانية، فيمدحه فيها، مظهرًا أثر قدومه على المدينة، وموافقة دخوله لبداية فصل الربيع، ثم يحثه على المضي قُدُمًا نحو غايته، وهي الوصول إلى دمشق، متوقعًا لمدن الشام وأهله تغيرات عميمة شاملة، ونعمًا جليلة عاجلة، تنالهم فور نزول الخليفة لديهم [١١، ص ١٦٢٧/٣][٨].

١٥- لو كنت أحسد أو أنافس معشرا　　　لحسدت أو نافست أهلَ المَوصِلِ

١٦- غَشِي الربيع ديارهم وغَشِيتها　　　وكلاكُما ذو بارقٍ متهلل

١٧- فأضاءَ منها كل فَج مظْلمٍ　　　داجٍ، وأخصب كل وادٍ ممحِل

١٨- فمتى تخيم بالشآم!؟ فيكتسي　　　بلدي نباتا من نداك المسبل

القصيدة الثالثة التي قالها البحتري في هذه المناسبة هي في مدح مدينة دمشق.ومن المرجح أنه نظمها في قرية داريا القريبة منها من جهة الجنوب، ثم أنشده إياها في دمشق. وقد فصّل فيها بعض ما أجمله في قصيدته الأولى الدالية، مؤكدًا رغد العيش في هذه المدينة، في الأيام المعتدلة، والليالي الباردة خاصة.ثم راح يصف له عذوبة نهرها بردى، مشيدًا بمحاسنها، وطيب زمانها، وصفاء جوها، واعتدال هوائها، وكثرة مائها، واخضرار مرابعها، وجمال طبيعتها؛ فالناظر إليها لا يرى إلا تخضير الأشجار، ولا يسمع إلا تغريد الأطيار.

ومع أن إقامته القصيرة هناك كانت في أواخر فصل الربيع وقدوم فصل الصيف، فطبيعة الربيع وآثاره فيها كانت لاتزال مرئية. هكذا يمزج البحتري مدح المدينة بمدح المتوكل، فيثني عليه في الأبيات ١١، ٢، ٣، ٤، ١٠ ويصفه بالرشاد والسداد، وبُعْدِ الأفق؛ لأنه نقل الخلافة من سامراء إلى دمشق، وذلك بعد أن أضفى عليه الشرعية في كونه خليفةً ولاّه اللهُ وأعطاه ما لم يعط أحدًا.وإن كانت المصادر لا تذكر شيئًا خُصَّ به المتوكل دون غيره من سائر الخلفاء العباسيين الذين سبقوه، ومن ثم فإن ما ذهب إليه الشاعر البحتري ليس أكثر من مبالغة، أراد منها أن يستعطف المتوكل ويستعطيَه. فاستطاع ببراعة يراعه أن يجمع بين حسن المدينة، وإحسان الخليفة [١١، ص ٧٠٩/٢].

العيش في لَيل " داريا " إذا بردا　　　والراح نمزجها بالماءِ مِن بردى

قُلْ للإمام الذي عمت فَواضِلُه　　　شرقًا وغربا ، فما نحصِي لها عددا

اللهُ ولاك عن عِلْمٍ خِلافَته　　　واللهُ أعطاك ما لَم يعطِهِ أحدا

(٨) القصيدة ٢١ بيتا.

ومــا بعثْــت عِتــاق الخَيــل في ســفرٍ إلا تعرفْـــت فيـــه الـــيمن والرشـــدا
أمــا دمــشق فقــد أبــدت محاســنها وقــد وفَــى لــك مطريهــا بمــا وعــدا
إذا أردت مــلأت العــين مــن بلـــد مستحـــسنٍ ، وزمـــان يـــشبه البلـــدا
يمــسي الــسحاب علــى أجبالهــا فِرقًــا ويــصبح النبــت في صــحرائها بــددا
فلــست تبــصر إلا واكفًــا خــضِلاً (٩) أو يانعــا خــضِرا ، أو طــائرا غَــرِدا
كأنمــا القــيظُ ولــى بعــد جيئَتِــه أو الربيــع دنــا مــن بعــدِ مــا بعــدا
يــا أكثــر النــاسِ إحــسانا ، وأعرضــهم ســيبا ، وأطــولَهم في المكرمــات يــدا
ما نسـألُ اللهَ إلا أن تدوم لـك الـ ـنعماءُ فينـا وأن تبقـى لنـا أبـدا

والحق أن ما قاله البحتري في دمشق هو من جميل الشعر وطريفه الذي وصفت به هذه المدينة. وكان معينًا ثرًا، ومراحًا خصبًا لمن جاؤوا بعده، لينهلوا من معينه، ويقتفوا أثره، بمحاكاته والنسج على منواله.على أن تلك الحملة الكلامية الإعلامية التي لهجت بها - فيما يعتقد - ألسنةُ الخطباء، وقصائدُ الشعراء، بما في ذلك قصائد البحتري، التي راح يبثها بثًا حيًا ومباشراً، أولاً بأول، لم يَدُمْ مفعولها طويلاً ؛ فقد ضَجِر المنتصر ابنُ الخليفة وهو في سامراء، فكتب البيتين الآتيين إلى أبيه الذي لم يكن قد استقر به المقام بعدُ في دمشق، يشكو إليه سوء حاله في العراق، ويحضه على الرجوع إليه [١٢، ص ١٧٣/٣](١٠):

إلى الله أشـــكو عـــبرة تتحيـــر ولــو قــد حــدا الحــادي لَظَلّــت تحــدر
فياحــسرتا إن كنــت في ســر مــن رأى مقيمــا وبالــشام الخليفــةُ جعفـــر

فلم يلبث الشاعر البحتري أن تحول تحولاً جذريًا عن كل ما كان قد صدر عنه بهذا الخصوص، ورجع عن إعجابه بدمشق، وعن مدحه لها، منقلبًا انقلابًا سافرًا ومكشوفًا عند أول إشارة لعدول المتوكلِ عن البقاء في الشام، وعزمِه الأخير على ترك دمشق.

---

(٩) الخَضِل : الندي.

(١٠) ولم يدر في خلد المتوكل ، ولا في خلد ابنه العاق هذا، أن يدا طولى ستكون له في مهلك أبيه، فكان من مؤشرات تلك المأساة أن راح الناس يطلقون لقب المنتظِر على المنتصر، لاستبطائه موت أبيه. وقد تم له ما كان، إلا أنه لم يعش بعده أكثر من ستة أشهر، إذ أُزيح بالطريقة نفسها.

هكذا يغادر المتوكل الشام على جناح السرعة في آخر ربيع الأول من سنة ٢٤٤ للعودة الدائمة إلى العراق.وإذا البحتريُّ الشاعرُ الذي رأيناه قبل أشهر معدودة يشكو ويتململ،معربًا عن غيظه من حر العراق وقيظه، يُظهر السرور لِعزوف المتوكل عن دمشق، وزهده فيها، ورغبته عنها، وإزماعه الرحيل نحو الشرق من جديد.وكان موت جاريةٍ للبحتري بدمشق قد هيَّجه على البوح بما في نفسه،والإفصاح عما طال كتمانه في ضميره [١١، ص ٢/٧١٤](١١):

٦- بنفسي من عاديـت مـن أجـل قَدْـدِهِ | بـلادي، ولـولا فقـده لم أُعادِهـا
٨- فلا سـقِيت غيثًـا دمـشق ولا غـدت | عليهـا غـوادي مزنـةٍ لِعِهادهـا
٨- وقـد سـرني أن الخليفـة جعفـرا | غـدا زاهـدا في أهلـها وبلادهـا

هكذا تتضح مصانعة البحتري للمتوكل وإيالته السياسية معه، بابتهاجه بالعودة إلى العراق، جاعلاً الشرق كلَّه يشاركه البهجة. وكأنه أصبح يرى الأمور بعيون أخرى مغايرة لتلك التي كان يرى بها من قبل. وكان من البديهي أن يتخذ موقفًا على النقيض من موقفه القديم؛ فها هو يمدح مدينة بغداد، ويجعلها تلبَس أحسن لباس لوصوله. ثم يصرِّح بأن شوق المتوكل إلى قصر الجعفري، ومن فيه من أحبابه، ثناه عنها. كما راح يقارن بين دمشق وسامراء، مستنبطًا وجوهًا عدة تجمع بينهما، وهذا ما جعله يعيد بعض ما قاله في دمشق، ويلصقه بسامراء لصقًا. فهذه ليلُها أيضًا رقيق، وأصيلها أنيق، وضحاها بارد! فلماذا لا تكون إليها عودة المتوكل؟ وهي التي توحشت لفراقه، وبان عنها أُنْسُها، حين انتقل إلى دمشق [١١، ص ١٦٤٣/٣](١٢):

١٣- أتى من بلادِ الغـرب في عـدد النقـا | نقَـا الرمـل، مـن فرسـانه وخيولـهِ
١٤- فأسـفَر وجـه الـشرق حـتى كأنمـا | تـبلج فيـه البـدر بعـد أُفولـه
١٥- وقـد لبـست بغـداد أحـسن زيهـا | لإقبالـه، واستـشرفت لعدولـه
١٦- ويثنيـه عنـها شـوقُه ونزاعـه | إلى عـرض صحـن الجعفـري وطولـه
١٧- إلى منـزل فيـه أحبـاؤه الألى | لقـاؤهم أقـصى منـاه وسـؤله
١٨- محـل يطِيـب العـيش رقّـةُ لَيلِـه | وبـرد ضحـاه (١٣) واعتـدال أصـيله

---

(١١) القصيدة ٨ أبيات.

(١٢) القصيدة ٢٢بيتا . النقا من الرمل: القطعة تنقاد محدودبة . غيل الأسد أو خِيسه: موضعه، وهو الشجر الملتف يستتر فيه كالأجمة.

(١٣) يلاحظ هنا كيف يصف الشاعر البيئة العراقية بالرقة والاعتدال، مخالفًا ما كان أكده من قبل وهو حر العراق، الـذي لم يكـن

٢٠- دعاه الهوى مِن سـرمن راءَ فانكفـا ... إليهـا انكفـاء الليـث تلقـاءَ غِيلـه

٢١- علـى أنهـا قـد كـان بُـدلَ طيبهـا ... ورحـل عنـها أنـسها برحيلـه

٢٢- وإفراطُها في القـبح عنـد خروجـه ... كإفراطِهـا في الحُـسن عنـد دخولـه

وإذا صح وصف البحتري لسامراء فإن نقل حاضرة الخلافة لم يكن إلا لأسباب أمنية، تنأى بالمتوكل بعيدًا عن الهيمنة المتعاظمة للأتراك، وهو ما يمكن ملاحظته من الأوضاع العامة، التي تحدّث عنها تولنر (Töllner) [١٣، ص ٧٦] في هذه المدينة آنذاك. لكن تبين للخليفة فيما بعد أن البعد عنهم، لم يكن خيرًا له من القرب منهم، ليستطيع مراقبتهم عن كثب.

وقد كشف لنا الشاعر في البيت الثالث عشر من هذه القصيدة عن ضخامة الجيش الذي رافق المتوكل ثم عاد معه. فهو يضم - فيما يضم - فرسان الخليفة وخيولَه المطهَّمة الأصيلة.

ولنا أن نفهم أيضًا من البيت الخامس عشر أن المتوكل كان ينوي الاستقرار في مدينة بغداد، بعد أن خَلَّف الشام وراءه، إلا أن ذلك لم يكن له، واضطر إلى البقاء في سامراء.

وقد برع البحتري في قصيدته هذه، من بين كثير من الشعراء، بتشخيص المدينة، حين جعلها تحزن لغياب الخليفة عنها وتستوحش، ثم تفرح لعودته إليها وتستأنس.

هذا النزوع إلى تشخيص من هذا النوع عاود البحتريَّ، وهو يحاول أن يُنطِق مكة بالفرحة والبهجة حين عَهِد المستعين (ت٢٥٢هـ) سنة ٢٤٩هـ إلى ابنه العباس بولاية العهد، وولاَّه الحرمين، ولكنه لم يلبث أن تحول إلى مدح الابن وأبيه، فبارك تلك الخطوة، ناقلاً شكر الناس على ذلك، وغبطتهم برغبة الخليفة [١١، ص ٢٢٥٨/٤](١٤):

٦- أرى "البلـد الأمـين" ازداد حـسنا ... إذِ اسـتكفيته العـف الأمينـا

٧- نـدبت لـه أبنـك العبـاس لمّـا ... رضـيت بخلْقـه هـديا ودينـا

٨- سـررت بـه القلـوب غـداةَجاءت ... ولايتـه، وأسـررت العيونـا

ليطيقه، فيهرب منه حين يشتد، وينشد: (ديوانه، ص٩٤٣/٢)

نصب إلى طيب العـراق وحسنهـا ... ويمنـع منـها قيظُهـا وحرورهـا

هـي الأرض واهـا إذا طـاب فـصلُهـا ... و ـرب منـها حـينَ يحمـى هجيرهـا

(١٤) القصيدة ١٨ بيتا.

٩- فقــد صــدر الحجــيج وهــم وفــود بـــشكرك رائحـــين ومغتدينـــا

وهي أبيات من قصيدته التي أنشده إياها في تلك السنة ٢٤٩هـ بعد مقتل المتوكل بسنتين. والجدير بالذكر أن الشاعر ابن الخياط (ت٢٣٠هـ) كان أسبق منه في هذا التشخيص، ومن ثم فلا يبعد أن يكون البحتري نفسه قد تأثر بسلفه وقلده، وأنه لم يكد يضيف شيئًا إلى البيتين الآتيين. ففي قصيدة ابن الخياط وصفٌ بالكسوف والإشراق لمدينة دمشق، وهي تتجاوب مع رحيل أميرها عضد الدولة أبق بن عبدالرزاق عنها، وعودته إليها على هذا النحو [١٤ ، ١٦٩] (١٥):

ولمــا دعتـــه عـــن دمـــشق عزيمـــةٌ أبى أن يظـــل البـــدر فيهـــا بقطبـــهِ

ترحـــلَ عنهـــا ، فهـــي كاسفـــةٌ لـــه وعـــاد إليهـــا ، فهـــي مـــشرقةٌ بـــه

وكما هو متوقع فقد جاء بعد البحتري من تأثر به، واستفاد من تجربته هذه. إذ يمكن للباحث أن يلاحظ بعض الشبه بين قصيدته الآنفة الذكر، وقصيدةٍ للشاعر سبط ابن التعاويذي (ت٥٨٣هـ) مدَح فيها مجدَ الدين بن الصاحب، وهنأه بعودته إلى بغداد من سفر له. وقد عبر خلالَ مديحه له عن معاناةٍ شخصية، تتمثل بالقلق على مصير ممدوحه، والخوف على نفسه في هذه المدينة، التي تكدرت حين غادرها، ثم اخضرت واخضلت بعودته إليها [١٥ ، ص ٤٦٩]:

ظَمِئـــت إلى إشـــراق وجـــــ ـــهك مقلـــتي ، فـــانقع صـــداها

مـــذ غبـــت مـــا أَنِـــست إلى غمـــضٍ ، ولا طَعِمـــت كراهـــا

وتوحـــــــشت بغـــــــداد لي لمـــــا بعِـــــدت ، وجانباهـــا

ذهبـــت بـــشاشتها وصـــو ح نبتهـــا ، ودجـــى ضـــحاها

أمـــست وقـــد ودعتهـــا عطْـــلاً ، فـــلا عـــدِمت حلاهـــا

كالليلـــة الليـــلاء ينـــها ل النـــهار علـــى دجاهـــا

اليـــوم أصـــبح مونقًـــا بـــك جوهـــا ، عِبقًـــا ثراهـــا

---

(١٥) وسوى هذين البيتين فإن الشاعر العباس بن الأحنف (ت١٩٢هـ) ربما كان الأسبق من كليهما في التعبير عن هذا المعنى، المتمثل بأثر المكان في نفس الإنسان، غير أنه أورده في سياق التعبير عن فعل الفراق في نفس المحب وقد غادره المحبـوب. ففـي ديوانـه، ص٢١ يقول مخاطبا صاحبته (فَوز) :

وكنتم تزينـون العـراق فشـانـه ترحلُكم عنـه وذاك مذيبـــي

وامتـ ـ ـد في نعمـ ـ ـاك سـ ـ ـا بـ ـغُ ظلـ ـها ، وحـ ـ ـلا جناهـ ـا
واخـ ـ ـضر يـ ـ ـابس عودهـ ـ ـا بنـ ـ ـداك ، واخـ ـ ـضلت رباهـ ـا
كـ ـادت تهـور وقـ ـ ـد عـ ـرا هـ ـا، مـ ـن فراقـك مـا عراهـا

ونبقى مع الشاعر البحتري في المناسبة نفسها ؛ وكما أشرنا قبل قليل فلعل المتوكل كره البقاء في مدينة سامراء، بعد عودته إلى العراق، وربما كان ذلك هو السبب الذي جعله يأمر ببناء قصر الجعفري، بموضع يسمى الماحوزة قرب سامراء. وقد تلا ذلك استحداثُ مدينة هناك، غير بعيدة عن بغداد، دعيت بالمتوكلية، تيمُّنًا باسمه، فانتقل إليها، وأقطع قواده بها قطائع، كما هي العادة، فصارت أكبر من سامراء، وشق إليها نهرًا من دجلة. فنظم البحتري سنة ٢٤٦هـ حين تم بناؤها، قصيدة مدحه فيها، ووصف ارتفاع قصور تلك المدينة، مشيدًا بعمرانها ولمعانها، ومنوهًا بحدائقها [١١ ، ص ٢٠١١/٣]:

أرى المتوكليـ ـةَ قـ ـد تعالـ ـت محاسـ ـنها ، وأكملـ ـتِ التمامـ ـا
قـ ـصور كالكواكـ ـب لامعـ ـات يكـ ـدنَ يـ ـضِئْن للـ ـساري الظلامـ ـا
وبـ ـر مثـ ـلُ بـ ـرد الوشـ ـي فيـ ـه جنـ ـى الحَـ ـوذان ينـ ـشـ ـر والخزامـ ـى

ثم أعقبها سنة ٢٤٧هـ بقصيدة أخرى، هنأه فيها، مرددًا بعض ما قاله من قبل في مدينة دمشق، بخصوص اعتدال البيئة، وجمال الطبيعة. ثم نوَّه بمسجدها الجامع، الذي تم إنجازه، داعيًا إلى بناء دار الضرب فيها، وهو ما يعرف في وقتنا الحاضر بالمصرف المركزي، لكي تضاهيَ غيرَها من المدن الكبرى والعواصمِ التي كان يتم فيها صَكُّ النقود [١١ ، ص ١٣١١/٢]:

يهنيـ ـك في المتوكليـ ـة أ ـ ـا حـ ـسن الـ ـصيف اوطـ ـاب المربـ ـع
فيحـ ـأ مـ ـشرقة يـ ـرق نـ ـسيمها مِيـ ـثٌ تدرجـ ـه الريـ ـاح وأجـ ـرع
وفسيحةُ الأكنـ ـاف ضـ ـاعف حـ ـسنها بـ ـر لهـ ـا مفـ ـضٍ ، وبحـ ـر متـ ـرع
قـ ـد سـ ـر فيهـ ـا الأوليـ ـاء إذ ٱلتقَـ ـوا بِفنـ ـاء منبرهـ ـا الجديـ ـد فجمعـ ـوا
فارقَع بدار الـ ـضرب بـ ـاقي ذكرهـ ـا إن الرفيع محلّـ ـةً مـ ـن ترفـ ـع

على أن سرور المتوكل لم يكن ليكتمل في هذه المدينة الجديدة، إذ كان المتربصون يتحينون الفرصة للإيقاع به، والتخلص منه. وحينما سنحت لهم، قتلوه في قصره الجعفري [١٦، ص ١٢٧/٢][(١٦)]. وبذلك انتقل الناس عن هذه المدينة، فهُجِرت وخَرِبت، حتى كادت تنسى.

تلك هي القضية التي أقلقت بحق بالَ الخليفة ولم يُخْفِ خوفه ممن حوله، حتى صح ذلك الخوف، فاتسع الخرق على الراقع، وتعذر رأب الصدع، وشُقَّت عصا الطاعة، وذلك بانكشاف الغطاء عن الدسائس والأطماع التي كان يحوكها أقرب المقربين، ليكون ذلك الحدث مناسبة لإبداع قصائد جميلة في موضوع محدث وطريف على لسان شاعر مقرب متكسب، ليضرب لنا بها مثالاً مميزًا في مصانعة الممدوح، وهو يعلم ضمنًا - فيما نظن - أن ما كان يريدُ الخليفة فعلَه مشكوك في صحته، وميئوس من سلامته.

المراجع

[١] الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين : الأغاني ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧ بيروت ١٩٥٥ .

[٢] الأزدي ، أبو زكريا الأزدي يزيد بن محمد بن إياس الله : تاريخ الموصل، أخذ عنه ياقوت وغيره من قدماء المؤرخين .

[٣] الحُصَري القيرواني ، إبراهيم بن علي : زهر الآداب ، تحقيق علي البجاوي القاهرة ١٩٥٣م .

[٤] Kremer, Alfred von : Kulturgeschichte des Orients unter den Chalifen. Neudruck der Ausgabe, wien 1877. Aalen 1966

[٥] الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

[٦] Herzfeld, Ernst: Geschichte der Stadt Samarra.Hamburg 1948.

[٧] اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن واضح الكاتب : تاريخ اليعقوبي ، المكتبة المرتضوية ، النجف الأشرف ١٣٥٨هـ ، بيروت ١٩٦٠م .

[٨] كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ابن : البداية والنهاية تحقيق عبدالحفيظ سعد عطية ، مصر ١٣٥١- ١٣٥٨هـ .

[٩] تغري بردي الظاهري جمال الدين يوسف ، ابن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة تحقيق وليام بوبر، كاليفورنيا ١٩٢٩م .

(١٦) ينقل الزركلي في كتابه الأعلام ص ١٢٧/٢ أن المتوكل عاد من دمشق وأقام في سامراء إلى أن اغتيل فيها ليلاً بإغراء ابنه المنتصر.

[١٠] السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء ، تقديم عبدالله مسعود ، منشورات دار القلم العربي ، حلب ١٤١١هـ/١٩٩١م .

[١١] البحتري ، الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي : ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣م .

[١٢] الحموي ، ياقوت بن عبد الله : معجم البلدان ، دار صادر، دار بيروت ، بيروت ١٩٥٧.

[١٣] Töllner, Helmut: Die türkischen Graden am Kaliefenhof von Samarra.

[١٤] الأصفهاني ، عماد الدين الكاتب محمد بن محمد : خريدة القصر وجريدة العصر، الجزء الأول بداية قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، دمشق ١٩٦٤م . الجزء الثاني القسم العراقي ، تحقيق بهجة الأثري ، بغداد ١٩٦٤. ونشرته في مصر مجموعة من المحققين ١٩٥٢م .

[١٥] التعاويذي ، محمد بن عبيدالله بن عبدالله سبط ابن: ديوان ابن التعاويذي ، نشره مصححًا المستشرق مرجليوث ، مطبعة المقتطف ، مصر ١٩٠٣م .

[١٦] الزركلي ، خير الدين : الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، القاهرة ١٩٥٥م ، دار العلم للملايين ، ط٩ ، بيروت ١٩٩٠م .

Al-Bouhtory and the Transfer of Succession of Mutawakil to Damascus: Hypocrisy or Approval ?

Hussein Bayoud
Professor at the Faculty of Arts and Humanities
Department of Arabic Language
University of Aleppo
Hb-deara@hotmail.com

(Received 11/8/1428H.; accepted for publication 26/1/1429H.)

Abstract. This research discusses the idea of flattery of the entourage of a certain ruler like a sultan especially of the kind carried out by poets who avail all

Opportunities to pledge their allegiance to this specifis ruler who blindly agree with whatever he says or orders. But no longer they do so, until they discover the truth and get shoked or disappointed.

In this latter case, thy mostly confess their mistakes and admit the fact that they were utterly mistaken